روائي البحر المتوسط

بلاسكو ابانيز

في اواخر شهر دسمبر الماضي كنت اتحدث مع صديقي الفاضل محرر المقتطف عن بلاسكو ابانيز وتآليفه ولم يكن ليدور بخلدي وقتئذٍ ألا يمرّ على تلك المحادثة أقل من شهر حتى يصلني من محرّر المقتطف كتاب يحمل بين طياته نبأ وفاة هذا المؤلف العظيم ويقترح عليّ فيه ان اعرّف ابانيز الى قراء المقتطف في مقال موجز

ترددت في الامر . لاني لا اعرف عن ابانيز الكثير . والمصادر التي بين يديّ عن حياته قليلة جدًّا . وتنحصر اكثر معرفتي به في كتبه ومؤلفاته . ولهذا — استميح قرّاء المقتطف عذراً اذا تكلمت قليلاً عن سيرة هذا الرجل . واكثرت من ذكر حياته الحافلة في فنه ورواياته

لقد فُجع الادب العالمي في الثلاث سنوات الاخيرة بثلاثة من اركانه . اناتول فرانس من فرنسا . وتوماس هاردي من انكلترا . وبلاسكو ابانيز من اسبانيا . كل منهم كان اماماً عظيماً في فنه وان اختلفت مناحيهم . فلكلٍّ نبوغٌ في اسلوبه . ولكلٍّ عبقريةٌ في مسلكه . الاّ ان كلاً من توماس هاردي واناتول فرانس توفي بعد الثمانين من عمره مكرماً محترماً في بلاده . ولكن بلاسكو ابانيز توفي في سنّ الستين (وهذه السنّ هي منتصف الحياة الادبية لرفيقيه) شريداً عن بلاده مغضوباً عليه من حكومته منفيًّا عن اسبانيا التي احبها وتألم لاجلها حتى الساعة الاخيرة من حياته

وليس توماس هاردي من طبقة اناتول فرانس او بلاسكو ابانيز — فهو روائي عظيم بدون شك — الاّ انهُ متمسك بكياسة القديم وسموته لا تأثراً ولا تمرداً . والقديم دائماً ملطّف معقول لا يخدش عاطفة ولا يجرح تقاليد . ان هاردي خلفٌ عظيم للمدرسة الكلاسيكية الادبية وما لها من الابهة والمجد والجمود . فليس بغريب اذا وجدناهُ ينزوي تدريجاً وينسحب الى عالم النسيان قبل وفاته بخمس عشرة سنة . وقد مات كالخادم الامين الذي احيل « الى المعاش » بعد خدمات طويلة

اما اناتول فرانس فكابانيز وهما — على الضد من الروائي الانكليزي الكبير — الثائران اللذان لا يشفقان على القديم وتقاليده . اناتول فرانس هو الثائر المتهكم الذي يظهر غير مكترث للنتيجة . ولكن أليس عدم اكتراثه هذا جزءًا من فنه ؟ اوليست ثورته

مستورة تحت غشاء دقيق من قلمه الرقيق ؟ وابانيز هو الثائر بدون تكتم ولا انشقاق . لا يشفق على نفسه ولا على ابطال رواياته . هو ثائر منذ حداثته فكان الثورة غريزة فيه

ولد في بلنسيا باسبانيا في التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٧ وقبل ان يبلغ سنّ الثامنة عشرة كان محرر جريدة جمهورية النزعة . تصدر في مدينة بلنسيا . وحكم عليه في ذلك العهد لجرم سياسي نسب اليه بالسجن في مدينة برشلونة مدينة الثورات . اما الشعب في بلنسية فكان يحبهُ محبة شديدة وقد اعاد انتخابهُ للبرلمان الاسباني سبع مرات متتابعة حتى اصبح زعيماً لحزبه الجمهوري وذلك قبل بلوغه الثلاثين من عمره

ابتدأ حياتهُ الادبية ايضاً في مقتبل العمر متبعاً الطريقة الطبيعية مقتفياً آثار خطوات روائيي فرنسا ، كاميل زولا وغيره ، في النسق والسبك . ولاشك انهُ كان معجباً (كما يظهر في كثير من مواقف رواياته) — بزولا واناتول فرانس — . وان كان لم يأخذ عنهما كثيراً . ولم يلبث في دور التلمذة طويلاً . نراهُ ذلك الاستاذ الماهر حتى في فجر حياته الروائية . فروايتهُ (البراكة) او الكوخ الخشبي الحقيري وهي اول رواياته ، تصف حالة رجل غريب يستولي على قطعة ارض ليعيش فيها مع عائلته بين فلاحي مقاطعة بلنسيا . وهنا يدب دبيب الغيرة والفساد في عقول ذوي النفوس الصغيرة من مجاوريه . ورغماً عن ان هذا الموضوع محدود المجال والغاية الا ان ابانيز في هذه الرواية متفوق في فنه اذا احاط هذا الموضوع البسيط برونق يمتاز به عن جماهير الروائيين

فهو يصف عذاب هذا الغريب وآلامهُ النفسية بين جيرانه وصفاً يترك في القلب اثراً عميقاً . لم ير ذلك الغريب منهم فترة من الشفقة الا عند موت احد اولادهِ ولكنهم لم يلبثوا ان انقلبوا عليه واعادوا الكرة بمظاهر التطفل والظلم والاحتقار الناشئة عن قصر عقولهم وبلادة طباعهم ، الى ان انتهى بهم الامر الى طردهِ من بينهم . وهذا يذكرنا بهكم اناتول فرانس حيث يقول . . هو جاري وبالطبع هو عدوّي . .

لا اعرف بالضبط الوقت الذي ابتدأ فيه العالم الادبي خارج اسبانيا يهتم بأبانيز . ولكننا نجد لهُ رواية « الكنيسة » او الكتيدرال مترجمة الى اللغة الانكليزية في سنة ١٩٠٩ ورواية « الدماء في الميدان » مترجمة ايضاً قبل الحرب العالمية . الا ان الجمهور الادبي في اوربا لم يعرف ابانيز الا حوالي سنة ١٩١٧ ، حينما ظهرت روايتهُ «فرسان الرؤيا الاربعة » وتلتها رواية « بحرنا » اي « رواية البحر المتوسط »

في سنة ١٩١٩ وعنده وما قبلها من اعظم روايات الحرب العظمى

اني لم اقرأ اباتيز الا عند ظهور روايته — فرسان الرؤيا . والحق يقال اني تقدمت لقراءة هذه الرواية ببعض التخوف والتردد لاني دائماً اتحاشى الروايات التي تبحث في الموضوعات السياسية المعاصرة اذ هي في الغالب تشوهها الدعاية فتظهر بحلة لا هي فنية صحيحة ولا هي دعاية متقنة . ولكنني عند الانتهاء من قراءة فرسان الرؤيا وجدت فيها تلك القوة الفنية الحقيقية ، تتخللها دعاية شديدة ، تسير بها نحو الغاية ، بدون اضطراب في الفن ، ومن غير ان يضر احدهما صفو الآخر . فهي رواية تجمع بين الجمال والحماسة والغيرة والحزن ودقة الوصف والتعبير الى حدّ لا مثيل لهُ

واباتيز في فنه لا يهاجم مباشرة . فهو اذا ثار على مصارعة الثيران ووحشيتها وفظاعتها في بلاده كما في رواية « الدماء في الميدان » فعل ذلك بالقدح والتقريع . لا يؤلمنا بوصف هذه القساوة . ولا يرينا سيدة نحيفة رقيقة الشعور تتأثر من هذه القساوة فيحملونها من وسط المسرح مغميًّا عليها كما يفعل غيره من الروائيين. لا شيء من ذلك . لا يتألم في الرواية الا بطل المصارعة . يتألم من تخوفاته قبل يوم المصارعة ويتألم من حب الكونتس « دوناسول » التي تعشقهُ كبطل وتحتقرهُ لانهُ من العامة ، تنسبهُ عند اوج مجده وترتد عنهُ عند ما تتضاءل شهرتهُ . يموت بطل المصارعة في الرواية فيحملونهُ الى ما وراء الارينا والجمهور الذي يعبدهُ لا يتحرك من مكانه بل يصيح : «لا توقفوا المشهد ! . لا توقفوا المشهد ! » وما هي الا دقائق قليلة حتى يعود المشاهدون الى متنزهاتهم وتسلياتهم كأنهُ لم يكن امر

وهناك مشهداً آخر من مشاهد تهكُّم اباتيز العميق على الحياة والهيئة الاجتماعية . ان بطل رواية « الكتيدرال » رجل اشتراكي ، كاباتيز نفسه ، يثور على الكنيسة وعلى الحالة الاجتماعية الحاضرة . ثم يطلب على امره بعد ان يطوف اوربا ، مطارداً من بوليسها ، لمناداته بالثورة الاجتماعية . ويعود مكسور القلب سقيم الجسم الى بلاده ، متخفياً متكراً ، يلتجىء الى اخيه الفقير احد خدمة كنيسة توليدو ويعيش عندهُ من اموال تلك الكنيسة التي يكرهها اشد الكره . الا انهُ لا يلبث هناك حتى يبدأ يتلمذ الذين حولهُ من خدام الكنيسة البسطاء والفقراء فينجح في اقناعهم للاخذ بارائه ولكنهُ لا يؤثر في اعمالهم . يسرقون الكنيسة وعند اقل مقاومة منهُ يقتلونه . نفس تلامذته يقتلونه ! هذه هي الحياة في نظر اباتيز شئنا أم لم نشأ . هي الحياة تهكم وتزدري

بنا . وابانيز يصفها بدون اشفاق على آمالنا وغرورنا

وليس أشد من ابانيز على بلاده وعلى تاريخها وتقاليدها التي تمجّد اسبانيا وتلهج ابداً بمجيد تاريخها عقيب طرد العرب منها . واليك ما يقوله عن ذلك العصر :

يجادل بطل رواية « الكنيسة » تلامذته بقولهم : آه على اسبانيا القديمة . آه على مجدها الغابر . آه على ملوكها الذين طردوا العرب منها وجعلوها سيدة الممالك . فيجيبهم الاشتراكي الضيف المتكر: « لا تخدعوا انفسكم فان العصر الذي تذكرونه هو ابتداء تقهقرنا . لا تغرنكم اللمعة في تلك الصوَر . فليس كل ما يلمع ذهباً . لم يأت تاريخ اسبانيا المجيد من الشمال ولا من الكنيسة كما تظنون، بل من الجنوب ومن العرب. مع العرب اتت الى اسبانيا الحرية لشعبها المقيَّد تحت نير ملوك الدين ومطارنة الحروب . وما استولى عليه العرب في سنتين استرق سبعمائة سنة لاخراجهم منهُ . ذلك لانهم لم يلقوا مقاومة شديدة عند فتحهم بلادنا . فان الشعب الاسباني كان يشعر ان هذا الفتح ليس استبدال السلاح بل استبدال تمدن جديد ، وحرية دينية جديدة ، لم ترها اسبانيا من قبل ولا من بعد . فالعرب جعلوا اسبانيا في ذلك العهد كالولايات المتحدة في اميركا الشمالية . يعيش فيها المسلم والمسيحي واليهودي بحرية تامة ومن غير تعصب ما . وبينما كانت دول شمالي اوربا تتطاحن في حروب دينية وابناؤها يعيشون كالبرابرة ، كان العرب والاسبان واليهود عائشين بسلام معاً كتلة واحدة وامة واحدة . فزاد سكان البلاد حتى بلغوا ثلاثين مليوناً في مدة قصيرة . وارتقى فيها الفن وزهت العلوم وتأسست فيها الجامعات . ملوكها سكنوا القصور وشعبها عاش في الرخاء بينما كانت ملوك بلدان الشمال تبيت في قلاع صخرية سوداء قذرة . وشعوبها تعيش في احقر المنازل يلبسون ويأكلون كالبرابرة المتوحشين

« وماذا عمل ملوك اسبانيا الذين اتوا من الشمال بعد كل ذلك . طردوا الحضارة من اسبانيا . طردوا العرب واليهود واحلوا محلهم الدين والتعصب . أليست الملكة ايزابيل هي التي وضعت نظام التفتيش ! ألم تطفئ اسبانيا في ذلك العصر سراج العلم الذي كانت تضيئه الجوامع الاسلامية والكنائس اليهودية واحلت محلهُ قناديل العبادة وسرجها ؟ فصارت اسبانيا تهتم بمواعيد الصلاة اكثر من اهتمامها بالقراءة والتنقيب ، وعندها ابتدأت اسبانيا تموت

« مسكينة اسبانيا ! فانها تعتبر فيليب الثاني اعظم ملوكها في ذلك العصر ولكن لم يكن

فيليب هذا اجنبياً عنها . أليس هو القائل : « افضل ان احكم جثثاً هامدة من ان اكون ملكاً على هراطقة » . نعم قل الهراطقة في اسبانيا واليك ما حل بهم : احد عشر الف دير . مائة الف راهب . اربعون الف راهبة . مائة وسبعون الف قسيس . سيطر اهل الدين على العلم والسياسة وخيم الجهل على البلاد وكلما زاد جهل اهل الدين زاد تداخلهم في الامور الدنيوية فشتتت الكتب العلمية حتى لم تكن تجد في جامعة سلامنكا كتيباً في الجغرافية . وكان تلامذتها يظنون ان علم الرياضيات هو فرع من علوم السحر والتنجيم ولا محل للدرس »

***

ابانيز هو رواد البحر المتوسط . يحب هذا البحر ومياهه الزرقاء ويتتبع في رواياته حركات اسماكه واطيارات بحاراته بعطف وحنو كأنهم من ابنائه . يحب شعوبه على اختلاف اجناسها واديانها ويعجب برجالها الاقوياء الذين لوحت وجوههم شمسه ، ورق دماءهم هواؤه ، وفتلت عضلاتهم شواطئه وجباله ، فصيرتهم امضى واصلب من الصوان . يصلون الكبيرة والصغيرة كالجابرة بدون اشفاق ولا تردد . اذا احسنوا اسخوا وان اساؤا قسوا

عنهم يقول في روايته — ساري نسترم — اي « بحرنا » : « شعوب البحر المتوسط هم ارستقراطية الشعوب . بعضهم كانوا قرصاناً . وبعضهم من القديسين . ولكن ليس فيهم من هو بين بين . يصنعون الخير ويرتكبون الشر بجسارة هائلة . يطفرون من طرف الى آخر دون ان يمروا بالوسط حالاً

« على هذا البحر شاد الانسان اسمى امجاده . عوليس وبركليس كانا من ملاحيه . جزره انجبت هنيبال ونابليون وغاريبلدي . التشابه بين سكان شواطئه كبير . سماء واحدة وعقلية واحدة . جبال شواطئه وازهارها مقسومة شطرين ، شمالية ، وجنوبية ولكنها واحدة . فشعب جنوب ايطاليا وفرنسا اقرب الى اهل شمال افريقيا منهم الى اخوانهم في داخلية اوربا . شعوب شواطئه يميلون بعضهم الى بعض ويفهم بعضهم بعضاً ، ويتآخون بسرعة . وليس بغريب ان يعقد في العصور الوسطى على امواج هذا البحر قرصان الترب وبحارة جنوى وفرسان مالطة عهد اخاء

***

يشعر كل من يهتم بالفنون الادبية عند قراءة بعض المؤلفين كمن يكتشف كنزاً ثميناً

وكثيرون من المؤلفين فقرؤهم دون ان يثيروا حماستنا . وآخرون نقرؤهم بحماسة وثقة والقلائل منهم نكتشفهم اكتشافاً . فنشعر كشعور خبير عند ما يصيح : « وجدتها » او كمن يكتشف قارة كبيرة يعثر امامها في عينيه العالم القديم الذي كان يعرفه من قبل

افاق العالم الادبي في اوربا واميركا سنة ١٩٠٧ على فجأة ادبية عظيمة قلما نشعر بمثلها وذلك عند ظهور رواية ابانيز عن الحرب (فرسان الزوزا) . عندها اكتشفت اوربا واميركا ابانيز . وهذه ليست أعظم رواياته ولا أطرفها فهو روايات عديدة مترجمة الى الانكليزية منذ سنة ١٩٠٩ لانه لم يكن مجهولاً لدى القلائل العارفين . ولكن جمهور اوربا لم يعرفه حتى قرأ رواية « فرسان الزوزا » . وبدأت بعدها شركات النشر تعيد طبع رواياته وتترجم غيرها فاتسع نطاق شهرته اتساعاً عظيماً الى ان قال احد كتاب الاميركان الفكاهيين في ذلك الوقت : « ما دام ابانيز قد ابتدأ يضارب على سمعتنا فالاوفق ان نكسر اقلامنا ونجد لنا صناعة غير الادب للعيش »

اني لا اعرف من يجاري ابانيز فيما يتركه في القارئ من الاثر العميق . ولا من يفوقه في فنه . وسواء كان موضوعه الحرب العالمية ، او كنيسة توليدو ، او تأثير الدين على اسبانيا ، او تناكي بلتسيا ، او فقراء مدريد ، او تعصب الخيران ضد اسخيل بنتم — كل ذلك يجيء امامك بلحم ودم بالصورة الطبيعية من غير مبالغة او تهجم . ويبرز لك صورة منحوتة اجمل وارق من الاصل وابلغ تأثيراً منه لان روح — الآرتست — او الفني العظيم فيها . ولان فن ابانيز الخالد يخلدها

ابانيز اون مؤلف اسباني حديث حفظه له العالم الادبي ووضعه في مصاف العباقرة

يقول لنا بعض الاسبان : ان بلادهم انجبت من هو اعظم من ابانيز . عسى يصدقون فليست ارض على الادب ان يظهر فيه من هو اعظم من ابانيز ولكن العالم الادبي الى الآن لا يصدق ذلك ولا يعرف من اسبانيا غير ابانيز . فاسبانيا وارستقراطيتها التي طردت ابانيز من بلادهم لا تصلح ان تكون حكماً عليه . ولتفخر فرنسا التي لم تقرأ ابانيز الا مترجماً ، فقد قلدته وسام اللجيون دونور اعترافاً بأدبه ونبوغه

توفي متون في فرنسا — على شاطئ البحر الذي يحبه — في التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٨ اي في مثل اليوم الذي ولد فيه . وقد اشتركت جميع فرنسا بالحزن عليه واوفدت باريس الوفود مع اكاليل الزهر الى متون لتشييع جنازته ، وهو ليس فقيدها فقط ، بل فقيد العالم الادبي باجمعه

بقلم الدكتور سليم شحاده